

القيم الثقافية المؤسسة
للمهوية الأمازيغية المغربية

الفهرس

القيم في المجتمع الأمازيغي...واقع تجذر (لحسن أمقران) 9

الملاءمة وتحسين القيم الثقافية الأمازيغية (لحسن ايت الفقيه) . 21

القيم الثقافية الأمازيغية والديموقراطية(ذ.لحسن زروال) 25

القيم في المجتمع الأمازيغي...واقع تجذر

بقلم: لحسن أمقران(*):

كانت القيم في الحضارة والتاريخ الأمازيغيين ولا تزال، عنصراً أساسياً و مميّزاً يسم السلوكات والعلاقات بين الأفراد والجماعات، قيم استطاعت الاستمرار، تارة مؤثرة وتارة مؤثراً عليها، رغم كل الحضارات التي توافدت وتعاقبت على شمال أفريقيا. وهنا، ولا يستقيم الخوض في موضوعة القيم دون تناول نظري يسلّط الضوء على مفهوم القيم في اللغة، مفهومها الفلسفي، ثم مجالات تداولها وأقسامها.

القيم في اللغة العربية جمع قيمة¹ « وأصل القيمة الواو، ومنه: قومت الشيء تقويماً، وأصله أنك تقيم هذا مكان ذلك² ».، أصلها قَوْمَ قال ابن فارس: «القاف والواو والمقيم صحيحان، يدل أحدهما على جماعة ناس - قوم وأقوام - وربما استعير في غيرهم، والآخر على انتصاب أو عزم - قام قياماً -».

قال في القاموس: «القيمة» بالكسر: واحدة القيم، وماله قيمة إذا لم يدم على الشيء، والقوام: العدل وما يعاش به، والقوام: نظام الأمر وعماده وملاكه..

ولمفهوم «القيمة» في اللغات الأوربية دلالات تلامس دلالات هذا المفهوم كما في اللغة العربية حيث يقال في اللغة اللاتينية « valeres »؛ ويقال في اللغة الفرنسية « valeurs » ويقال في اللغة الإنجليزية « values »؛ ويقال في

(1) الفيروز آبادي: القاموس المحيط (4/168)، دار الفكر بيروت

(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون (5/43)، ط 2 سنة 1392 هـ

اللغة الألمانية «werte». وترجع كلمة « valeur » في أصلها الاشتقاقي إلى الفعل اللاتيني « valeo » ويعني أنا قوي أو أنا في صحة جيدة، كما تدل على الشجاعة و البسالة vaillance والصلابة والقوة ، وهو معنى يتضمن فكرة المقاومة والصلابة و التأثير و الفعالية و ترك بصمات قوية على الأشياء³.

أما اصطلاحيا فإن مفهوم القيم يحيل على كونها الوجود من حيث كونه مستحبًا ومرغوبا فيه، أو محلّ رغبة ممكنة. فالقيم إذن ما نرى أن من الواجب تحقيقه، و القيم من الناحية الذاتية، صفة في الأشياء قوامها أن تكون موضع تقدير إلى حد كبير أو صغير، أو أن يرغب بها شخص، أو جماعة من أشخاص معيّنين، ومن الناحية الموضوعية تظل القيم صفة الأشياء من حيث إنها جديرة بشيء قليل أو كثير من التقدير، ومثلا: قيمة الحياة، قيمة العقل، قيمة الحرية، والثقافة، والإبداع... وكلها قيم أخلاقية تواكب قيما أخرى هي القيم الجمالية كالحسن والجمال والرشاقة والأناقة، و قيما ثالثة ندعوها القيم المنطقية، وفيها الصواب، والخطأ، والمحتمل، وقيما رابعة وخامسة اقتصادية وسياسية واجتماعية، و ما إلى ذلك⁴.

كما يستعمل علماء الرياضيات كلمة «قيمة» للدلالة على العدد الذي يقيس كمية معينة؛ ويستخدم رجال الاقتصاد القيمة للدلالة على تقدير مادي لسلعة معينة، في حين يستخدم أهل الفن كلمة قيمة للدلالة على الجمع بين الكم والكيف، وهي بهذا تعبر عن كيفية الألوان والأحداث والأشكال، والعلاقة الكمية القائمة بينها⁵.

JOHN. Laird, The idea of value, 1929 (3)

(4) د.طه عبد الرحمان - سؤال الاخلاق - ط.1 - ص: 17 - المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب 2000

(5) البستاني، المعلم بطرس (1977م)، محيط المحيط، قاموس مطول للغة العربية، بيروت مكتبة لبنان

أما القيم من الزاوية الفلسفية فيطلق لفظ القيمة من الناحية الموضوعية على ما يتميز به الشيء من صفات تجعله مستحقاً للتقدير كثيراً أو قليلاً، فإن كان مستحقاً للتقدير بذاته، كانت قيمته مطلقة، وإن كان مستحقاً للتقدير من أجل غرض معين كانت قيمته إضافية».

هذا وتصنف القيم – وإن لم يكن التصنيف محل إجماع- إلى ثلاث أقسام هي الحق والخير والجمال. حيث أضاف بعضهم قيماً جديدة لاتندرج في الأقسام المذكورة بل وشكك آخرون في بعض هذه القيم.

وإذا ما أردنا تناول صفات القيم وجدنا اختلافاً مرة أخرى في هذه الأوصاف، فالمثاليون العقليون يعتبرون القيم صفة عينية في طبيعة الأقوال والأفعال والأشياء، وبذلك فهي ثابتة لا تتغير بتغير الظروف وبهذا المعنى تطلب لذاتها.

في حين أن هناك من يعتبرها صفة يخلعها العقل على الأقوال والأفعال والأشياء طبقاً للظروف والملابسات وبالتالي تختلف باختلاف من يصدر الحكم وبهذا قال الطبيعيون. في الأخير نشير إلى أن أحدث الاتجاهات الفلسفية ترجح كون هذه القيم عينية على كونها معاني عقلية.

من زاوية دينية، جاء استعمال لفظ القيمة في الفكر الإسلامي في حدود مدلولاته في اللغة، معبراً به عن قدر الشيء وأهميته، سواء في الماديات أو المعنويات⁶.

يتضح من التعريفات المختلفة للقيمة (valeur) أن مفهومها مفهوم مطاطي

(6) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط (2/768)، المكتبة الإسلامية، تركيا

القيم الثقافية المؤسسة للهوية الأمازيغية المغربية.

متلّون يشوبه الكثير من الغموض والخلط في التوظيف، فقد اختلف الباحثون في وضع تعريف محدد جامع ودقيق لها، وهذا الاختلاف يعزى بالدرجة الأولى إلى الاختلاف المرجعي والموروثات الفكرية والدينية والمنطلقات النظرية والصبغة التخصصية التي تمنع وضع تفسير موحد للقيمة أو القيم.

فالقيمة هي عبارة عن الأحكام التي يصدرها الفرد لاستحسان أو استهجان موضوع سيكولوجي (شخص أو شيء أو حدث أو فكرة) وذلك في ضوء تقييمه أو تقديره لهذه الموضوعات أو الأشياء، وتتم هذه العملية من خلال احتكام الفرد في ذلك لمعارفه وخبراته و مكونات الإطار الحضاري الذي يعيش فيه ويكتسب من خلاله هذه الخبرات و المعارف.

و تتحدد القيم إجرائيا استنادا لهذا التعريف على النحو التالي 7:

- أنها محكّ نحكم بمقتضاه ونحدد على أساسه ما هو مرغوب فيه أو مفضل في موقف توجد فيه عدة بدائل تتحدد من خلالها أهداف معينة أو غايات ووسائل لتحقيق هذه الأهداف أو الغايات.

- أنها حكم سلبي أو إيجابي على مظاهر معينة من الخبرة في ضوء عملية التقييم التي يقوم بها الفرد.

- أنها تعبير عن هذه المظاهر في ظل بدائل متعددة أمام الفرد. وذلك حتى يمكنه الكشف عن خاصية الانتقائية التي تتميز بها القيم. و تأخذ هذه البدائل أحد أشكال التعبير الوجداني مثل: يجب أن أو ينبغي أن، حيث يكتشف ذلك عن خاصية الوجدان أو الإلزام، التي تنسم بها القيم.

(7) مركز الدراسات والأبحاث في القيم بالمملكة المغربية

- أنها ذات وزن ، ويختلف وزن القيمة من فرد لآخر بقدر احتكام هؤلاء الأفراد إلى هذه القيمة في المواقف المختلفة. وفي ضوء ذلك تمثل القيم ذات الأهمية بالنسبة للفرد وزنا نسبيا أكبر في نسق القيم ، و تمثل القيمة الأقل أهمية وزنا نسبيا أقل في هذا النسق.

واستنادا إلى ما سبق بيانه من تعريفات يمكن استنتاج أن القيمة هي مجموع المعتقدات والقناعات التي ينظر من خلالها الفرد إلى أي موضوع سيكولوجي: إنسان، حدث، سلوك، أو شيء والتي تعمل على توجيه رغباته واتجاهاته نحو هذه المواضيع السيكلوجية وتحدد طبيعة سلوكه تجاهها: القبول، الرفض، اللامبالاة، التعاطف، التحامل⁸.

بعد هذه القراءة النظرية في مفهوم القيم، نعود إلى موضوع القيم الأمازيغية التي لا يمكن تصوّرها خارج المنظور الحداثي والكوني، وهنا مرّة أخرى لا بدّ من التذكير من كون النضال الأمازيغي يتأسس على ثلوث مقدّس، اللغة، الأرض والإنسان، وباللغة الأمازيغية «تامازيغت»، «تامازغا» و«تيموزغا»، بهذا المعنى، وعلمنا أن «تيموزغا» تعني في أبسط تعريف يمكن أن يقدّم لها هي مجموع القيم التي تشكل ميثاق شرف جماعي في المجتمع الأمازيغي، والذي يمثل إرادة جماعية من أجل حياة ومصالحة جماعية تحمي الضعيف من كل تهديد داخلي أوخارجي، كما يشكل قطيعة إبستيمولوجية مع مفاهيم البرغماتية والمنفعة الشخصية. بهذا المعنى إذا لا يمكن الحديث عن الإنسان الأمازيغي إذا انتفت فيه هذه القيم، والتي تتميز بطابعها العقلاني، الحداثي ثم الكوني.

(8) مركز الدراسات والأبحاث في القيم بالمملكة المغربية

تجدر الإشارة إلى القيم الأمازيغية تنبعث وترتوي من الأرض، فهي ترتبط بهذه الأخيرة أكثر من ارتباطها بالإنسان الذي يتخلق ويتأدب وينضبط بفضل هذه القيم التي بدونها لن يجد لنفسه مكانا بين الجماعة الأمازيغية في انتظار رحيله عنها، وهنا نستحضر مقولة «ماسينيسا» حين قال: «أفريقيا للأفارقة» وهي العبارة التي تحيل على التمسك والتشبث بالأرض وبالتالي بالقيم الأمازيغية. إن منظومة القيم الأمازيغية تجد نفسها في الأعراف والأمثال والتقاليد الأمازيغية التي تعبر عن هويتنا ووجداننا الحضاري والحدائي، فهي تحمي موروثنا المادي والرمزي، إن الأعراف والأمثال والتقاليد الأمازيغية تعتبر خزانا لهذه القيم وهي التي تضمن إكسابها صفة الإلزام في مواقف شتى، لقد ظل مفهوم القيم عند الإنسان الأمازيغي مرتبطا بالإستقامة وتدبير كل نازلة بطريقة ديمقراطية بعيدا عن كل أشكال إستعمال الشطط في السلطة أو إستغلال النفوذ، أو غيرها من مظاهر الإنحراف الإختلال من قبيل الدناءة والتميع.

عودة إلى الطبيعة العقلانية للقيم الأمازيغية، يتجلى الطابع العقلاني للقيم الأمازيغية في جعل العقل مرجعية أساسية للقيم الأمازيغية، ومن ذلك أن العقل الأمازيغي عمد في إنتاج الأعراف والتقاليد ذات الاهداف القيمة بغية تدبير الشأن الامازيغي الإنساني في مختلف النوازل التاريخية والإجتماعية والإقتصادية ووفق كلّ التوجهات والمواقف الفكرية والسياسية.

أما الطبيعة الحدائية لهذه القيم، فتتمظهر بداية في أنه لا يمكن أن نفهم الحدائة أو نقيم جماعة تقوم عليها ، إلا إذا كنا نؤمن أن الإنسان ليس نمطا واحداً ، فلكل بيئة أهلها وخصوصيتها الجغرافية والطبيعية والتاريخية، ولكل زمان

ظروفه الخاصة ونظمه المميزة وطرقه وأساليبه، والقيم الأمازيغية التي تعكسها الأعراف الأمازيغية الشفوية والمكتوبة تستجيب وبشكل كبير لهذه الخاصية، من جهة ثانية، أن حاجيات الإنسان تتناسل وتتطور وفق تفاعله مع واقعه، إن النظم الماضية لا يمكن أن تحقق المنفعة والإشباع، وهو ما يفسر تحيين القيم الأمازيغية وفق المتغيرات والظروف، علاوة على ذلك : أن هناك قيماً إنسانية مشتركة لا خلاف عليها تمثل تراث الإنسان أياً كان مكانه وزمانه بدأت قبل الأديان وهي الحق والخير والجمال، والتي امتدت وتنوعت وتعمقت لصالح الإنسان بعد الأديان السماوية والوضعية وأصبحت قيماً إنسانية مشتركة دافعة للحدثة وليست معوقة لها. وأخيراً، إن الحديث عن الحدثة دون تحكيم العقل والاحتكام للعلم وتقديس قيمة العمل لا يستقيم أبداً، وهو ما نجد القيم الأمازيغية تستجيب له بشكل شبه كلي.

في الأخير نجد الطبيعة الكونية للقيم الأمازيغية تبرز من خلال تمحورها وتمركزها حول الإنسان بغض النظر عن كل الانتماءات الضيقة، الإثنية واللغوية والعقدية، فالقيم الأمازيغية لم تكن يوماً امتيازاً في يد هذا وسوطاً ضد ذلك، بل إن هذه القيم تظل منهاجاً وضع في إطار ديمقراطي مسالم ينبذ العنف وسلمي يؤمن ويؤكد على حسن الجوار وحثمية التعايش بين مختلف التلاوين الفكرية والعقدية واللسانية، ويسمح بالثقافة الإيجابية والتعاون الهادف بين أفراد المجتمع. وهنا نشير إلى أن قيود المؤرخين هيرودوت قال بأن الآلهة اليونانية لبيبة الأصل مما يعضد فكرة كونية القيم عند الأمازيغي الذي آمن وعمل على تصدير الفعل النبيل إلى غيره عوض مصادرته واحتكاره في دائرة المحلي والقبلي.

عبر التاريخ، تظل الكثير من الوقائع والأحداث على سموّ ورقي القيم الأمازيغية، ومن ذلك أن التاريخ الأمازيغي لم يعرف مؤسسات سجنية سالبة لحرية الأفراد، فعقوبة القاتل مثلا تكون بالتهجير والإبعاد القسري عن محيط الجماعة البشرية التي ينتمي إليها وهو قرار يحقن الدماء في مقابل إنصاف أهل الضحية من خلال إبعاد القاتل، وفي ذلك احترام لحق الحياة الذي يظل أسمى القيم الانسانية، فالتاريخ لم يسجل وجود عقوبة الإعدام أو التصفية الجسدية في تاريخ المؤسسات السياسية والاصلاحية الأمازيغية في حق المخالفين للقوانين والتشريعات والأعراف، كما أن كما أن معاملة أسرى الحرب من قبل الممالك الأمازيغية دليل آخر على سمو هذه القيم، وخير مثال تبني الملكة ديهيا لأحد الأسرى أثناء الغزو العربي لشمال أفريقيا، من جهة أخرى، نورد نموذجا آخر في التعايش مع الآخر والتمثل في زواج كبار الشخصيات الأمازيغية من خارج عقدة الدم واللسان سواء مع الأسر الفرعونية المصرية أو الأسر الرومانية الأوربية. كما تؤرخ العديد من الأعراف الأمازيغية لنصوص ومقتضيات تمنع التمييز أو الإساءة لليهود، وهي الدليل على أن المجتمع الأمازيغي يبنني على أساس إنساني يتجاوز الخصوصيات بكل تلاوينها.

من بين أهم القيم الراقية التي نجدها في المجتمع الأمازيغي، قيم الإختلاف والنسبية، والتي بالمناسبة تعتبر محور الأطروحة الفكرية للحركة الأمازيغية التي استلهمتها من الموروث العرفي الأمازيغي، هذه القيم التي تكفر بالمطلق بل وتعتبر الاختلاف صمام أمان ي حفظ للمجتمع تماسكه وقوته، ولعل العلمانية التي تميز المجتمع الأمازيغي في صورتها التقليدية والعفوية، في مدخلها الاجتماعي تعني القبول بالآخر المختلف فتتسامح وتعايش معه وتقبل به دون شروط، وفي

العمق العلماني أيضا نجد قيم المواطنة الحقّة في أسمى تجلياتها عندما نعلم أن المدخل السياسي للعلمانية الأمازيغية يقتضي التعامل مع المواطنين على قدم المساواة، واعتماد ثنائية الحق والواجب في التفاعل مع المواطن دون أي تمييز سلبي أو إيجابي.

في المجال الفلاحي، من القيم التي تنتشر في المجال الأمازيغي بكثرة نجد أن التضامن والتعاون قيم متجذرة في الثقافة الأمازيغية عبر العصور وما مفهوم «تاويزا» أو «تيويزي» إلا دليل على هذه الثقافة، ومن ذلك ما نشهده في مواسم الحرث والحصاد وجني الغلات، حيث يصبح العمل جماعيا بامتياز وبشكل عفوي، نفس الشيء يقال عن إصلاح قنوات المياه والقناطر والطرق وغيرها من المرافق العامة التي نضيف إليها المسجد ودار القبيلة، حيث يكون العمل تطوعيا وجماعيا لا مجال فيه للمفاضلة أو الأجرة.

ومن ذلك أيضا وجود راع موحد سواء مستقدم أو من داخل القبيلة نفسها يتكلف برعي القطيع، في حين يتكلف السكان بإطعام هذا الراعي بشكل دوري تناوبي، وفي حال تعرض الراعي لمكروه أو ضياع رأس أو مجموعة من رؤوس القطيع، تهب الساكنة ذكورا وإناثا، صغارا وكبارا لتسوية الوضع.

ويعد التضامن الذي نسجله خلال المآتم أقوى أنواع التضامن حيث نجد قبائل أمازيغية تتكلف وبشكل كامل بكل الإجراءات التي تعقب الوفاة من التغليف إلى الدفن وإطعام أهل البيت ومن يأتي لتقديم التعازي.

سياسيا، ظلت البنى السياسية للمجتمع الأمازيغي متماسكة قوية وبشكل ملفت

للنظر وذلك لارتباطه بأنساق وليس بأفراد، وبفضل قيم الديمقراطية التي تميّز هذا المجتمع، وفي أرقى تجلياتها نجد مؤسسة «لجماعت» حيث الديمقراطية التمثيلية التي لا يمكن أن تعمل خارج المقاربة التشاركية لكل أطراف الجماعة البشرية (القبيلة) التي تمثلها من جهة، ومن جهة ثانية مفهوم التناوب الديمقراطي حيث تظل المسؤولية رهن من يريد تحملها خلفا لسابقه، بل إن من حق الممثلين حجب الثقة عم ممثلهم في أي لحظة وهو ما لا نجده اليوم في أرقى الأنظمة الديمقراطية المعاصرة.

ولو عرضنا الأمثال الأمازيغية لوجدناها تعج بالقيم الإنسانية المتنوعة التي لا زالت المجتمعات الإنسانية المعاصرة تحاول التحلي والتطبع بها، وهي القيم التي نجدها متجذرة في ابنية الفكرية للأمازيغ، ونعرض فيما يلي لبعض القيم الأمازيغية من خلال الأمثال الشعبية الأمازيغية:

• قيم المسؤولية وإنتاج التنمية:

- Ku tixsi tugl s aDaR nns ... (كل شاة تعلق من رجلها)

- Ur da ttasy tamart tamart vas s tmDlt... (لا يحمل البالغ بالغا

إلا إلى اللحد)

-Ur illi ka abla ka - (لا شيء بدون مجهود)

• قيم الاجتهاد والصبر:

- Wanna iran tinvdi ivrd as aDaR - (من أراد النتيجة فليجد في عمله

Wanna ikrzn ka imgr t - من حرث حصد

Wanna mi drusnt tvrad isgdy asnt ussan - من كان أجره قليلا،

فليكثر أيام العمل

• قيم عزة النفس:

Yuf ufus amajjgal afus amazdar - اليد العليا خير من اليد السفلى

Ttettr ttettr ar imi n uDgg°al tRRZd taZuDa - إياك وشفقة الأقارب

• قيم التضامن:

Afus g ufus tankra - يدا يدا، تتحقق النهضة

Ur iviy yizm i twrut - لا يستطيع السبع مقاومة قطيع

• قيم الاحتياط:

Wanna vif ikka yifivr da t issiwid ugatu - من لدغه الثعبان

خاف من الحبل

Wanna iggann g walim da t ttakln ivyal - من نام على التبن

تجرأ عليه الحمير

• قيم عدم الإساءة الى الآخر:

Mr d i wudm n wa nn utv wa ...لولا هذا لضربت ذاك

الملاءمة وتحصين القيم الثقافية الأمازيغية

لحسن ايت الفقيه

تعرض المغرب الكبير للغزو الثقافي، إذ فرضت عليه نظم ثقافية تمس في الجوهر الأنساق الثقافية الأصلية والهوية/الهويات الثقافية، فصلت لزاما المقاومة. وتعد ملاءمة الأفكار وسيلة من وسائل المقاومة غير المباشرة. وتعني الملاءمة محصول عملية تكيف يتعرض لها الفكر الدخيل ليتناسب والثقافة الأصلية، ويتعرض لها الفكر الأصل إن حصلت حاجة تحصينه وتقويته. إنها مقاومة ثقافية غير كتابية في حاجة إلى الحفر والجمع والتدوين. والحاجة إلى الملاءمة هي التي جعلت المغاربة يقبلون مذهب الإمام مالك الذي فتح مجالاً للتعود، فكانت العادات الانفتاح عليها وقبول الخصوصيات الثقافية واحداً من الأصول الستة عشر التي لقيت استحساناً لدى المغاربة. وما كنا هنا لنلم بمجال الملاءمة والإحاطة بها، لصلة كل ذلك بالثقافة الشفاهية.

إن النص الكتابة لما يتأسس يعتمد تقنيات فنية، وحسبنا أن أفلاطون يشبه الكتابة بالتكنولوجيا، كما لو كانت الممارسة الرقمية في عصرنا الحاضر، إذ الأصل في الأداء الشفاهية. وإنه من السهل تدوين الخطاب الشفاهي بإدخال بعض التحسينات عليه، لكنه من الصعب جعل نص مكتوب رواية شفاهية، دون إخضاعه للتكيف ليتناسب والنسق الثقافي المحلي.

وإذا أخذنا قصة يوسف، كما هي مروية في التوراة ومضمنة في سورة يوسف في القرآن، نصا مكتوبا نلناها في الشفاهية الأمازيغية كيفية تدور حول الرقم السحري 07، أي: إن إخوة يوسف سبعة هم أبناء الضرة، وأن أم يوسف نجبت النبي يوسف وحده. ذلك أن سرد قصة يوسف على حالها لا تستقيم لأن رقم 11 غير ذي معنى في الثقافة الأمازيغية. ومن جانب آخر تدور معظم الروايات على المتوحد أي الفرد الواحد الذي لا إخوة له، يسمى بالأمازيغية (بوهو). وأما قصة النبي سليمان والهدهد فقد وردت في الشعر الأمازيغي على شاكلة النبي سليمان والبومة، وأن هذا الطائر ألقى باللائمة على النبي سليمان لما نوى الاستجابة لمراد المرأة بلقيس، فتراجع عن توفير لها سريرا من ريش الطير، وأن النبي سليمان تزوج بلقيس، وذلك ما لم تبينه النصوص بوضوح.

ويفصل المتصوفة الأمازيغ بين التقوى والعلم مؤولين الآية: (واتقوا الله ويعلمكم الله..) بكون (ويعلمكم: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم وليس فعل جواب)، ولما كان الفعل ويعلم غير مجزوم فلا علاقة للتقوى بالعلم. ولتسهيل ممارسة التعبد أنشأت الصلوات الصوفية باللسان الأمازيغي.

ولا غرو، فقد لعبت الزوايا دورا غير منكور في تكييف التقاليد الشفاهية، لتتناسب وتعاليم الديانة الإسلامية، وتكييف مضامين النصوص الدينية، بواسطة الفتوى، لتتلاءم وبعض العادات القديمة المرتبطة بالهوية (الهويات) الثقافية للأوساط القبلية المغلقة. فالفقيه يفتي وفي ذهنه النسق الثقافي لمحيطه الاجتماعي، يفتي بحيث لا يضر العادة ولا العقيدة. وفي المجال الدنيوي المحض، تظهر

الزاوية بلباس ثقافي اجتماعي دنيوي، فتنظم الفضاء المعماري لمحيطها تنظيماً يستجيب للحاجات الثقافية، بإحداث فضاءات الفرحة المهيأة لاحتضان الحفلات والعروض الفنية الغنائية والمسرحية، وفضاءات الاستعلام وترويج الخبر، وفضاءات التسويق والتشميس والتعبد والتعهد. وللزاوية تصور حول المجال، بما هو مصدر الموارد والخيرات، ورؤية حول المجالية، بما هي فلسفة في تنظيم المجال، وتوظيفه ليعخدم الإنسان. وفي هذا الصدد تسهر الزاوية على توزيع الموارد الطبيعية، وضمان الحق في الولوج إلى الماء والحطب والكلأ.

تكيف الزوايا بالأوساط الأمازيغية التراث الثقافي الأمازيغي لتبعده عن النحلة وتكيف مضامين النصوص الدينية الإسلامية لتجعلها في متناول أوساط الثقافة غير العالمية. ولقد نجحت إلى حد ما في تحصين الهوية الثقافية للكثير من القبائل. وإنه من الصعب تتبع مسار التكيف عبر الزمان لغياب الوثائق، لأن التكيف ممارسة شفاهية، وشأن الثقافة غير العالمية. لكنه من الضروري تمييز فصول التكيف ومجالاته، وتناول بعض الفصول الثقافية، من خلال رصد الطقوس، كما هي في الحال، أو كما هي بالأمس القريب، كالزواج ورموزه، والحناء ودلالاته الرمزية، والماء ورموزه، والطقوس الأمازيغية والإسلام الثقافي كما تبرز في القبورية، والفضاءات المعمرة ومناسبة المولد النبوي.

وتعرض عالم الطفل للتكيف. وحسبنا أنه في القرى الزراعية بالجنوب المغربي فضاءات الطفل تمارس فيها ألعاب تذكرنا بالماضي البعيد من ذلك لعبة (حجا شايطا) لفنيات قلعة مكونة وبومالن دادس التي تذكرنا بمملكة تنشيطا

اليهودية بواد درعة (درا). وهناك ألعاب تحمل قيم التطير كما في الديانة الصابئة.
وباختصار توفق نهج الملاءمة والذي تعتمد عليه الكثير من الفتاوي على تحصين
القيم الأمازيغية لتسلم من الوقع السلبي للثقافات الدخيلة. والموضوع جدير
بالبحث والتنقيب للكشف عنه كمدخل لإحياء الذاكرة الأمازيغية.

القيم الثقافية الأمازيغية والديموقراطية

ذ. لحسن زروال

لا يخفى على أحد من المشتغلين بالثقافة والفكر ما كان لمفهوم الثقافة من أهمية وحساسية، هذه الأهمية التي تزايدت مع تطور المعارف والعلوم الإنسانية في النصف الأخير من القرن 20 وبداية القرن 21 خاصة بعد تصاعد الحركات الهوياتية في جميع بقاع العالم، وظهور فكرة الأمن الثقافي بسبب التهديد الذي شكلته العولمة على هويات الشعوب وثقافات الأمم بما في ذلك تلك التي نجحت في تكوين دول قوية وكبريات الثقافات الإنسانية.

لقد ظل معامل الثقافة ضعيفا إبان الحرب الباردة بسبب طغيان الإيديولوجي على المعرفي والثقافي حيث كانت الماركسية مثلا تركز على الوعي الطبقي وكانت مهووسة بفكرة لم واستجماع شتات الطبقة العاملة وتوحيد صفوفها ضد المستغلين، وكانت الرأسمالية مسكونة بهاجس الربح وغزو الشعوب، لهذا تراجعت الثقافة إلى الخلف واحتلت المراتب الأخيرة في سلم أولويات المنظرين والإيديولوجيين. لكن العقد الأخير من القرن 20 حمل إلى الوجود ما يمكن أن نسميه الخطاب الثقافي المعاصر الذي أعطى الثقافة وضعيتها الاعتبارية في ما يشبه إجماع الفلاسفة والمفكرين على ضرورة تمتيع الإنسان بحقوقه الثقافية والاجتماعية والبيئية توج بصدور موائق وعهود دولية. يقول علي صدقي أزايكو: «إن عزة المرء يستمدّها من إنسانيته، وإنسانيته مبنية على كرامته،

وكرامته مبنية على احترام ثقافته الأصيلة». وبهذا تصبح الثقافة حقا من الحقوق الضرورية لأنها ليست شيئا مفارقا للإنسان بل عنصرا يدخل في صنع ماهيته وأناه ويحايث وجوده إن الثقافة كما يرى سترابوس توجد خلفنا وأمامنا وفوقنا وتحتنا، وبهذا فهي تؤثر تأثيرا مباشرا في الفكر.

وتماشيا مع الشعار الذي اختارته FNAA للدورة الثالثة لمجموعة الذكاء الجماعي الأمازيغي هذا الشعار الذي يمكن اعتباره خلاصة فكرية وفلسفية للتجارب الحداثية في العالم، فالطرق إلى الحداثة تختلف والدروب الموصلة إلى الديمقراطية تتباين حسب الموروث الثقافي لكل دولة، وخير التجارب الحداثية وأنجحها تلك التي تنطلق من فهم علمي للثقافة المحلية فالحداثة والأنوار في العمق تجارب ثقافية اختلفت منذ منشئها، ولهذا يميز المفكر غير ترود هيملفارب بين أشكال التنوير في كتاب له بعنوان

British French. and American Enlightenment

فالدول الحداثية نحت مناحي كثيرة صوب الحداثة حسب المنظور الثقافي الذي يميزها، أي أن الحداثة مشروع فكري ونظرة جديدة للإنسان والحياة والدولة والحقيقة والله ... ساهمت كل الثقافات في بنائه وليست ملكية خاصة تحتكرها حضارة أو تستفرد بها أمة أو تستأثر بها نخبة، فمظاهر الحداثة مبنوثة وموجودة في ثقافات الشعوب وحضاراتها.

ما قيل حول مفهوم الحداثة ينسحب كذلك على الديمقراطية التي تبقى بدورها

مفهوما سياسيا ونظريا تضاربت بشأنه التعاريف، بل اختلفت طرق أجرأته وتنزيله تبعا لاختلاف الثقافات أيضا فكل نظام اجتماعي ثقافي يتميز بشخصية أساسية وتصبح معها الأنا ترسبا ثقافيا عند Kardiner .

إذا سلمنا بهذه القضايا المعرفية السابقة يحق لنا نحن الأمازيغ أن نتساءل عن إمكانية بناء نموذجنا الديمقراطي بالاعتماد على ثقافتنا المحلية، لكن هل في ثقافتنا الأمازيغية من القيم ما يمكن استثماره لبناء دولة الديمقراطية وحقوق الإنسان؟

لا أحد ينكر عراقة الثقافة الأمازيغية وإسهامها الحضاري منذ القدم، فهي واحدة من الثقافات التي درجت في حوض البحر الأبيض المتوسط، وكانت في احتكاك وتفاعل دائم ومستمر مع الحضارات الكبرى الإفريقية واليونانية والفرعونية ...

ما دام الأمر كذلك فالمجتمع الأمازيغي لم يتوقف عن إبداع اشكال تنم عن ديموقراطية مميزة ومبكرة، وعن حداثة فريدة فنية يمكن الاشتغال عليها أكثر وتطويرها بشكل أحسن بهدف الخروج من شرنقة الاستبداد إلى رحابة حقوق الإنسان.

إن تراثنا الثقافي الأمازيغي في معظمه لم يعتن به ولم تبذل بصدده الجهود العلمية الأكاديمية اللازمة لاستخراج كنوزه، والوقوف عند المنظور الثقافي الأنثروبولوجي الأمازيغي للإنسان والدولة والمجتمع، لأن هذا البعد المعرفي

يمكن أن يساهم في تقديم الأجوبة السياسية الشافية والكافية لمجتمعنا، يقول الأنتروبولوجي عبد الله حمودي: «الإشكال اليوم أنك لا تستطيع أن تجد ولو خمسة كتب لمفكرين عاشوا ولو لستة أشهر في الريف ... فارتباط المثقفين والنخب التي تدعي العقلانية كان ارتباطا نظريا، ولم يكن ارتباطا يمس المعيش اليومي والمعرفة القريبة، ولم يكن ارتباطا بالمعنى العلمي الذي يجعل الباحث ينصت لنبض المجتمع ويعرف عن قرب النظرة التي يفسر بها الناس حياتهم».

ورغم ذلك ومن خلال المعلومات والأفكار المستقاة من أعمال المؤرخين والأنتروبولوجيين والسوسيولوجيين المشتغلين بدراسة المجتمع الأمازيغي، خلصنا إلى وجود أرضية من القيم الثقافية التي تصلح للاستثمار والاعتماد عليها في إرساء النموذج الديمقراطي الحداثي المنبثق من تجاربنا التاريخية والاجتماعية. ومن هذا النسيج القيمي المتعدد اكتفيت برصد بعض القيم المرتبطة بشكل وثيق بالديموقراطية والحكمة الجيدة.

- **الاحتكام إلى القانون:** إن الدارس للمجتمع الأمازيغي سيلاحظ ميل الإنسان فيه إلى تطبيق القانون، حيث سيجد الأمازيغ أنفسهم بقوانين عرفية نظمت جميع جوانب الحياة، والميل لتطبيق القانون والخضوع لمقتضياته يعد لبنة الديمقراطية وقيمة ثقافية مشتركة شككت عند ديورنت علامة على «أن الحضارة شقت طريقا آخر في ضمير الإنسان هو إحلال النظام محل الفوضى والقضاء العادل مكان الوحشية و القانون بدلا من العنف والإكراه».

• **احترام الحق في الحياة:** كثيرة هي المظاهر الثقافية الأمازيغية التي تقف دليلا ساطعا على الاحترام الكبير الذي يكنه الأمازيغ لحق الحياة، سواء في الأمثال الشعبية أو القصص أو الأشعار، لكن قوانينهم العرفية تؤكد ذلك بجلاء إذ لا نجد مطلقا في تشريعات إزرغان عقوبة الإعدام بل حدد المشرع الأمازيغي النفي كأقصى عقوبة في حق مرتكب جريمة القتل أزواك ومنه جاءت كلمة مزواك بالعامية المغربية، وتجاوز احترام حق الحياة حق الإنسان إلى حياة الكائنات الحية مثل الحشرات والحيوانات، كما تخلو القوانين العرفية الأمازيغية من الإكراه البدني ...

• **المساواة بين الجنسين:** بالعودة إلى تاريخ الأمازيغ القديم منه والوسيط والحديث نجد المرأة قد حظيت بمكانة لائقة فقد صنف الأنتروبولوجيون المجتمع الأمازيغي ضمن المجتمعات الأميسية، وتمكنت فيها المرأة من الوصول إلى أعلى المراتب المدنية والسياسية والعسكرية، فمنهن من أصبحن ملكات: تيهيا، تينهينان... ومنهن من لعب دورا سياسيا رياديا مثل زينب النفزاوية، كنزة الأورابية، فاضمة أنسومر، عدجو موح... كما أعطى القانون العرفي الأمازيغي المرأة الحق في التطليق وأعطاهها حق الكد والسعاية (تامزالت) عكس ما كان معمولا به عند العرب في ما سمي بحق المتعة الذي يسيء إساءة واضحة للمرأة ويعتبرها سلعة ووسيلة متعة.

• **فصل السلط:** يقول إيرنيست جيلنير عن الفصل بين السلط في المجتمع

الأمازيغي بأنه عجيب وفريد ويضيف هو «سمة أساسية للمجتمع البربري التي تحدد طبيعته العامة هي وجود القيادة، في هذه القبائل القيادية انتخابية سنوية، أكثر من ذلك طريقة الانتخاب بارزة للعيان تحترم المبادئ التي أسميها تناوب تكاملي». كما هو معلوم ينتخب أمغار على رأس كل سنة لولاية واحدة فقط وهو أعلى سلطة سياسية، أما السلطة الدينية فيمثلها إكرامن، في حين يحوز أمغار ن تيريت السلطة العسكرية فهو الذي يعلن الحرب مثلاً. هذه التنظيمات الاجتماعية والثقافية سمحت بتوزيع السلط الثلاث وتمنع ظهور حاكم مستبد وطاغية وتخلع فيها الحكومة سلمياً دون إراقة الدم، كما تقوم على التعاقد وهو تعاقد متقدم حتى على فلاسفة العقد الاجتماعي، خاصة عند طوماس هوبز الذي جمع السلط الثلاث في يد الحاكم المتعاقد معه وجعلها ممتدة في الزمان والمكان.

إن النظام الانتخابي الأمازيغي ديمقراطي ويلتقي مع التعاريف الحديثة للانتخابات الديمقراطية مثل التعريف الذي قدمه الفيلسوف المعاصر كارل بوبر في كتابه درس القرن العشرين قال: «الديمقراطية ليست أكثر من وسيلة لتجنب الطغيان».

أخيراً لا نزع في هذه الورقة المتواضعة الإحاطة الشاملة بالقيم الأمازيغية وعلاقتها بالديمقراطية، بل كان الهدف فقط هو فتح النقاش حول إمكانية بناء المشروع الديمقراطي المغربي بالانكفاء على قيمنا الثقافية والحضارية المرتبطة

بالإنسان والأرض، هذه القيم التي بنيت على أساس علماني إنساني غير تيولوجي
لاهوتي تقوم على التعايش والتعاون والتضامن، لهذا ألم يحن الوقت للتفكير في
صياغة مشروع مجتمعي أمازيغي يتأسس على هذه القيم وغيرها وعلى تأويلها
تأويلا ديمقراطيا وأنيا.

